سطوة الغرب الجماليّة: غربة الأجساد عن مخيّلتها

دلال البزري

منذ أن وطأت قدما نابليون بونابرت ميناء الإسكندرية عام ١٧٩٨ وحدوث ما تعارف الباحثون على تسميته بـ «صدمة» أهل الشرق بحضارة الغرب وتفوّقها، لم تخمد حدّة السجال الدائر بين الأطراف المهتمين به، أكانوا معادين لتعبيرات هذه الحضارة أو مناصرين لها.

كان لمسألة النساء نصيب من هذا الخلاف؛ بدأ خجولاً، متعثراً، أولياً بلغته ومفاهيمه... ثم تعاظم مع الزمن. ولئن بوشر السجال مع الطهطاوي والبستاني وقاسم أمين، حول «ضرورة تعلّم الفتاة» لكي تنهض «الأمة بجناحيها»، فقد أخذ مع الزمن يستحوذ على أقلام وأصوات نسائية متزايدة؛ تعلّمت المرأة الشرقية وتأهلت بما فيه الكفاية لتبوح بما يختلج في ذاتها، فصار بإمكانها أن تحلّل وتغوص في ثنايا القهر المجتمعي مطالبةً بالمزيد من «الحقوق» أو «الواقع» أو «الفعالية» في مجتمع أُقصيت عن التأثير في مجاله العام.

إلا أن القضايا المنضوية تحت هذا السجال، وقد باتت تستأثر بأقلام نسائية أكثر من أقلام رجالية، بقيت محصورة في دائرة المجال العام، أي المجال الذي يتناول قضايا التعليم والعمل والمشاركة السياسية، وكل ما يدور حولها من ملحقات، تفصيلية أو عامة. وهذه من المفارقات التي تستأهل التوقف عندها. لماذا؟ لأنه في حين أن رهان السجال هو إطلاق النساء إلى المجال

العام، (تعليم، عمل، سياسة)، فإن أحداً لم يلتفت إلى أمرين هامين:

- أن هذا الكائن، المرأة، الذي يتحمس فريق من المتساجلين إلى تطوير أشكال وظروف خروجه إلى العام، كان محيطه الجغرافي الكلي سابقاً هو المجال الخاص، وما زال حتى الآن، ولو بدرجات متفاوتة.
- ثم إن أحد طرفي هذا السجال، ما زال يعتبر، ولو بتعبيرات ودرجات مختلفة، أن هذا المجال، أي الخاص، بكل ما يتضمن من وظائف وأدوار هو مجال النساء بامتياز. وإذا أقرّ بعض دعاة هذا الطرف بضرورة تغيير مجال النساء الجغرافي، فهم يحاولون سحب مهارات هذا المجال إلى المجال العام: كمثل أن تخصص للنساء مجالات صغرى ضمن المجال العام لأنشطة وأعمال تتطابق أو تتناغم مع الوظائف التي تقوم بها في مجال الخاص (المواساة، الخدمة، العلائقية، إلخ...).

وهذه المفارقة تدفع إلى الانتباه إلى أمر خفي عن التعبير: الأقلام الخائضة في هذا السجال، نسائية كانت أم رجالية، موافقة على خروج النساء أو رافضة له، لم تتطرق إلى النساء في مجالهن الخاص إلاّ نادراً، أي في دراسات محدودة ومبتورة، تقوم بها كاتبات غربيات، أو باحثات عربيات ذوات أقلام غربية، تسنّى لهن اقتناص لحظات أو فصول من حياة نساء الشرق الخاصة.

علينا الإقرار إذاً بأن ذاكرتنا المكتوبة لم تغص في أعماق حيواتنا الخاصة؛ أمّا ثقافتنا الشفهية، فلا تقترب منها إلاّ في حالات أندر من الأولى... في لحظات قصوى من حياتنا، وضمن علاقات حميمة وشديدة الودية، والأهم من ذلك، لو كنّا متمتعات بدرجة ما من الثقة باللغة التي تعبّر عنها، وبإبقائها طي الكتمان... ذلك أن المجال الخاص مسكون بالمحرّمة الكبرى، أي الجنس، وكل ما يدور في فلكه من مسائل تتعلّق بالجسد وأشيائه الحميمة الأخرى.

ومن هذه الأشياء الحميمة التي لم يتطرق إليها السجال الدائر حول النساء، حول الخيارات المستحبة والمتعلقة بأنشطتهن ووظائفهن وأمكنة هذه الأنشطة والوظائف... من هذه الأشياء الحميمة، قلت، كيفية تحوّل أجساد نساء الشرق وسيمائهن منذ حملة بونابرت إلى الشرق و«الصدمة» التي أحدثتها فيه. لذلك، يبقى العديد من الأسئلة معلّقاً، من قبيل:

- من هم الأبطال الحقيقيون لهذا التحوّل؟

- وما هي الصيرورة الدقيقة التي رافقته وشهدت أهم محطاته، إن وجدت محطات؟
- وهل كان هناك مقاومة ما لهذا التحوّل؟
- وما هي المضامين التي حملتها؟ وما هي أشكالها؟

هذا البعد في البحث التاريخي / السوسيولوجي، لو يتحقّق، قد يوفّر لنا أدوات فكرية ومفهومية ثمينة جداً، تجيبنا عن سؤال يدور في خلد كل امرأة من نساء الشرق: ما هو هذا الشيء، غير المسمّى، الذي يحول دون تقرّبي الحميم من جسدي؟ ما هو هذا التفصيل الصغير، أو ربما التفاصيل الصغيرة، التي تجعل ذاك الجسد مرتبكاً بنفسه؟

ذاك الارتباك بالجسد، المحروم من لغته، الواقع على تماس مع مسائل حميمية، تجد مسؤوليته، بل موضوعه، في مستويات عديدة من مجال النساء الخاص. والذي يتبادر إلى الذهن عادة لتفسير هذا الارتباك، دون أن يُباح عنه، هو قصور حياتنا الجنسية /العاطفية عن تلبية حاجاتنا ورغباتنا العميقة. وهذا بحث أراه أساسياً وجوهرياً، لم تستجب له الأقلام العربية بالتفحص والتدقيق إلاّ لماماً؛ لكنه ليس مبحثي هنا. بل ما أود الولوج إليه الآن هو جانب آخر من مجالنا الخاص، يتّصل، ولو تلميحاً، بهذه الحياة العاطفية / الجنسية، يُثقل أجسادنا بوطأته، لكنه غائب حتى عن ألسنتنا الشفاهية. وأحدس بأن جزءاً يسيراً من غربتنا عن أجسادنا يعود إلى كوننا لم نساهم في صناعة الذوق الذي يقدم هذه الأجساد إلى العلن، بما تتضمنه الأجساد من وجه وقامة وثياب وحركة.. إلخ.

من هذا الحدس استمدّ فرضية مقالي؛ وهي فرضية سوف أسحبها على تصوري لعملية تحوّل هيئتنا الخارجية منذ حملة بونابرت: لم تعلم نساء الشرق بقدوم بونابرت إلاّ عبر الرجال الذين ساهموا إما بالاندهاش به أو مقاتلته أو متابعة جولاته... ومن بعد هذه الحملة وبدء التلقي ـ الإيجابي ـ لها، لم يذهب إلى الغرب سعياً وراء علومه سوى الرجال، وبدءاً من الطهطاوي وحتى سهيل إدريس (الحي اللاتيني) أو عبد الرحمن منيف (حكاية حب ماجوسية)، كان أول ما لفت رجال الشرق هو نساء الغرب؛ الجيل الأول من هؤلاء كان مذهولاً، والجيل الأخير صار مغروماً بهؤلاء النساء. ولكن منذ البدء، والفرضية ما زالت قائمة، أُعجب رجال الشرق بنساء الغرب. ومع كل التعقيدات والتناقضات التي تكون قد حكمت سلوكهم،

كان لابد لهذا الإعجاب بأن يُترجم إيعازاً من هؤلاء الرجال لنساء الشرق بأن يباشرن تبنّي بعض مظاهر الغرب المغرية. قد تكون القصة بدأت بأشياء بسيطة كمظاهر التعامل الاجتماعي أو طريقة المشي، أو الحذاء الأكثر ملاءمة، أو أنواع القماش الأفضل.. إلخ. إلا أنك تستطيع تلمّس أولى نتائجها ذات الدلالة الرمزية الفائقة، في التظاهرات التي قادتها نساء عربيات في بعض عواصمهن، في بدايات هذا القرن، والتي انتهت بحرق الحجاب. والمعلوم أن هؤلاء النساء كن مدعومات من أزواجهن أو آبائهن أو أخواتهن؛ هذا ما يفسّر اقتصار تحرّر النساء العربيات في المراحل الأولى من حركتهن على طبقات بعينها، هي القادرة، آنذاك، على إرسال رجالها إلى الغرب بغية التعلّم. وهذا يتوافق مع فرضيتي من أن أولى خطوات تغيّر هيئة نساء الشرق، من الحجاب إلى السفور، كان بتحريض من الرجال للنساء، من أقاربهن المباشرين.

منذ ذلك الوقت لم تتوقف القصة: بدأت بالافتتان بمظهر نساء الغرب وسلوكهن، ومرت بالنزوع إلى تعرية الرؤوس، وما زالت مستمرة بلعبة تعرية الأجساد وتغطية الرؤوس... لعبة تتأرجح بين الحجب والكشف.

سوف يكون لهذه العملية في شرقنا أصدقاء وأعداء، موزّعون، بحسب الشغف العام الذي انتابنا تجاه الغرب، شغف مسكون بالانجذاب واللفظ المتساوي حدّة:

- فمنّا من خلع الحجاب وتعرّى، كثيراً أو قليلاً، وهو مسحور بجمالية الغرب.
- ومنّا من تمسّك بالحجاب (أو «الستر» بحسب داعيه)، بل ذهب إلى النقاب؛وقد وضع نفسه خارج دائرة تأثير الغرب الثقافي.

وكلا الفريقين، كما سوف يتبيّن، يرى في الغرب نقطة استدلاله الجمالية المثلى؛ أكانت هذه الرؤية متجاوبة معه أم معادية له.

واليوم، لم يَعُد الأمر يحتاج إلى بضعة طلبة فازوا بمنحة وذهبوا إلى أوروبا للدراسة، فعادوا منها لا تعجبهم أرداف أخواتهم ولا سمنة أمهاتهم.

اليوم أصبح هناك شيء اسمه الموضة؛ منها نستنبط كافة الأشكال الجمالية التي نتبناها في حياتنا اليومية وفي مناسباتنا الكبرى. ولا أعرف موضة آتية من غير الغرب؛ وإن كانت هناك أسماء لامعة فيها أتت من الشرق (عز الدين علايا مثلاً)، إلا أنها تقولبت بالذوق الغربي، فيما الذي أضافته من ذاتها الشرقية لا يعدو كونه من الأشياء الثانوية.

والموضة التي أقصدها هنا لا تقتصر على المدى الزمني القصير، كالقول بموضة هذا الشتاء، أو الألوان الدارجة هذا الصيف، تبعاً للعروض التي يقدمها هذا المصمّم الغربي أو ذاك. ولا هي موضة الثياب فحسب، أو الحذاء أو الأكسسوار.. إلخ، بل هي الموضة الممتدّة عبر الزمن، التي تطال نواحي لم نعد ننتبه لها لشدة قِدَمها وترسّخ شرعيتها... كالوزن واللون والقامة والمشية والشعر.. إلخ.

لم تَعُد الموضة بحاجة لتوسّط بضعة طلبة، قلت، فوسائل اتصالنا بالغرب تنوّعت وتطورت، خصوصاً وسائل الاتصال المرئي التي تلاحقنا بالصورة حيثما وجدنا. الصورة، تلك الآلة صانعة النماذج الفذّة برسوخها وقدرتها على كسب شرعية تتفوق، بغموض سحرها، على كافة الشرعيات.

ضع جانباً الوسائط الثانوية للموضة، كالزيارات إلى الغرب والأفلام السينمائية. فصورها تعبر الأذهان لماماً... آثارها محدودة حيناً متأخرة أحياناً، ومشتتة غالب الأحيان.

فالوسيط الأشد وطأة والأكثر انتظاماً بيننا نحن، نساء الشرق، وبين الغرب حول موضوع الموضة تحديداً هو الشاشة الصغيرة وملحقاتها، أي الأقنية الفضائية، والإعلانات التجارية وأخيراً المجلات النسائية شديدة الانتشار. وقد صار معلوماً أن الصورة التي تبثها الأوليان هي الأقوى؛ إما بسبب الساعات الطويلة التي نقضيها أمام الشاشة الصغيرة، أو بسبب ملاحقة الإعلانات التجارية لنا إلى حيث نتواجد، في الشارع، أو المقهى، أو الشركات.. إلخ. أما المجلات النسائية، فلا تحتاج إلى إثبات ذيوعها: يكفي أن تتوقف برهة أمام أحد أكشاك المجلات والصحف، لتطلع عليك عشرات من الابتسامات على أغلفة.... هي إشارات إلى «نسائيتها».

تجد في هذه الوسائط الثلاث، وفي المقارنة فائدة، نوعين من الصور النسائية المتوجبة: الصورة الأصلية، الآتية مباشرة من موطنها، أي صورة المرأة الغربية، والتي تبدو على شيء من الاطمئنان للحلّة التي قُدمت بها. ثم الصورة المحلية، والمتجسّدة بالشرقيات اللواتي اقتنين أساليب الغرب وأنماطه في تقديم مظهرهن الخارجي فرسين على الاعتقاد بأنهن بتن يشبهن مثالهن الغربي؛ من مذيعات أخبار، ومقدمات برامج متلفزة، وحتى متباريات في انتخابات ملكات الجمال، مختلفة الألقاب. وهي صورة ينضح منها اضطراب ما، أحدس بأنه يعود إلى حالة من الغربة غير مفهومة الجذور. وهنا أيضاً أزعم بأن أثر الموضة التغريبي على نساء الشرق، هو

أقوى من ذاك الذي قد تستنبطه نساء الغرب. فالغربيات يتعرضن، لا محالة، لضغط على أجسادهن، لكنهن شريكات في معرفة وبناء مقوماته ومناخه الحضاريين. أما نساء الشرق، فلا هن بطبيعة الحال شريكات في صناعة الموضة، ولا هن يلمحن، لا من قريب ولا من بعيد، المعاني الرمزية أو الدلالية أو حتى المناخية التي تتضمّنها هذه الموضة.

خذ مثلاً موضة راجت مؤخراً، موضة بنطلون «البغي» (buggy): وهو البنطلون العريض الذي يُلْبَسُ من تحت الخصر ونزولاً، والطويل بالتالي إلى حدّ أن طرفه يجب أن يطوى من الخلف تحت الحذاء ليبقى ملبوساً. أصل الموضة هذه، يعود إلى أحد الأحياء مدقعة الفقر في مدينة نيويورك الأميركية: فقر وأعداد هائلة من أبناء الحي الذكور يقبعون في السجن. وتعبيراً عن كيد صبيانه وفتيانه الخارجين من الإصلاحيات، بقوا محتفظين بالبنطلون بلا أحزمة تربطه، كما هو الحال في السجن، بحسب قوانينه... فتجَرجَر البنطلون على الأرض، ثم توسّع لاحقاً لأن أبناء السجناء صاروا يلبسون بنطلون آبائهم، مكابرة منهم تجاه أخطار السجون. واليوم، عندما ترى المراهقين والمراهقات، أبناء الفئات الميسورة، وقد ارتدوا بنطلون «البغي»،تسأل نفسك: ما الفرق بينهم وبين أبناء الغرب الأميركي، من حيث تلقي هذه الموضة في الثياب؟ هل يعلمون بأن رواده هم أناس كرهوا السجون إلى حدّ اللامبالاة تجاهها؟ وقس على ذلك مع بقية أيام هؤلاء المراهقين اللاحقة، والحاملة معها المزيد من التلقي السلبي لموض (جمع موضة) تهبط عليهم كالمظلة من مكان مجهول... فيستفيقون مرات ومرات على مفاجآتها غامضة المعنى.

* * *

المثال المظهري الذي نصبو إليه، نحن نساء الشرق، منذ أن سهلت وسائل اتصالنا بالغرب هو مزيج من الأذواق والألوان والأشكال، معظمها غريب عن غالبيتنا: فالعيون الأجمل هي تلك المزرقّة أو المخضرّة بألوان الغرب الفاتحة (استبدل الدالّ اللغوي، ضع «الغازية» بدل «الفاتحة»، وستجد سيادة هذا اللون في لغتنا)؛ والبشرة البيضاء كالثلوج هي المرغوبة، «البنت بيضا بيضا بيضا»، يقول المغني وكأنه اكتشف لقيته. وفي بعض البلاد العربية يصفون السمراء بالـ «مفحّمة»، من فحم... وتكتمل الفواتح عادة بلون الشعر الأشقر، حيث لنسائنا حيلة أكبر، بسبب ابتكار قديم جديد اسمه، «الصبغة». فإذا وضعنا جانباً كل دهاء الحلاقين لإقناع أية امرأة

بضرورة «تشقير» شعرها، وهو أمر ضروري لأن الحلاق ليس سوى وسيط الموضة، نرى أن حلم نسائنا الكبير صار مؤخراً يرتدي صفة التدرّج: يبدأ بصبغ خصل رقيقة بألوان الذهب، ولهذه المرتبة اسم هو «البالياج»، ثم ينتقل إلى صبغ خصل أقل رقة باللون نفسه، فيبدو الشعر ساعتئذ أكثر ميلاً إلى «الشقار»، ويسمّون هذه المرحلة بالـ «ميش»... إلاّ أن الحلم يبلغ لدى بعضهن مبلغ الصبغ النهائي والصريح إلى اللون الأشقر: وهذه باتت مألوفة في بعض البلدان العربية التي زرتها أو أقمت فيها. وليكتمل هذا النموذج، على النساء أن يتحلين برشاقة وقوام هما من سمات الغرب أيضاً؛ وإلا، فكيف سيكون بوسعهن ارتداء ملابسه، الجميلة والدارجة، ذات القياسات الرقيقة الدقيقة والتي تستلزم أرقاماً لا تتجاوز ٤٠ حسب التعريف العالمي؟ هنا يأتي ما بات معروفاً بالـ «ريجيم»، أي إخضاع شهوات النفس لنظام شبه رهباني من الطعام، يقلل من الوزن ويأتي على البقية الباقية من النضارة: جميع النساء في الشرق يحلمن بكيلوغرامات ناقصة، معظمهن دون مستوى الحلم، والأقلية تحقّقه. وهذه مهارات تحتاج إلى إرادة فذّة ونشاط فائق، لكن سرعان ما تكتشف صاحباتها بأن الترهّل أصاب أجسادهن لقسوة الريجيمات المتتالية؛ فهو ليس بالريجيم الواحد، بل تقضي الواحدة عمرها متنقّلة بين ريجيم وآخر أكثر فعالية. وهنا يأتي الحل في رياضة لها رواج عالمي ونواد تنتشر بسرعة في بعض المدن العربية؛ واسم هذه الرياضة الأروبيك aerobic. أما التي لا تخرج إلى النادي الرياضي، لسبب أو لآخر، فأمامها كاسيتات الفيديو أو الحلقات التلفزيونية، الصباحية خاصة، لتمرينها عليها. غير أن المشكلة في هذا النوع من الرياضة هي نتيجتها: فهي لم تبتكر لإذابة الشحم الزائد وإعطاء بعض رباطة الجأش للجسد بصورة أساسية (وهي غايات محمودة)، بل تعطي الأولوية لمنح الجسد استدارات وعضلات ليست نساء الشرق بحاجة إليها، ربما بسبب إرث الولادات المتلاحقة... فتكون النتيجة حقاً غريبة: استدارات طبيعية مضافاً إليها استدارات «رياضية»، تخفيها الرشاقة وتبرزها أولى بوادر السمنة... وهي توقعك في حيرة من أمرك: هل أنت حقاً أمام جسد حقّق إيقاعه الخاص؟ تبنّى نغمات أستأنس بها؟ أم استقى من كل حدب وصوب مقومات تناغم كاذب، يفصح عن اضطراب مكبوت؟

مثال آخر على الالتواء الجمالي ـ الثقافي: يعلم جميعنا حب جداتنا للذهب واقتنائهن له؛ والصور المتبقية في ذهني عن لبس الذهب لدى جدتيّ الاثنتين فيه عشق لهذا المعدن لم يتجاوز يوماً حدّ الإفراط بإشعاعاته. أما اليوم، فقد تحوّل هذا

العشق الشرقي القديم للذهب إلى وطأة، أو قل مهرجان، على صدور من يحملنه، وعلى عيون الناظرين إليه؛ وذلك لاعتقاد الحاملات له بأنه كلما زاد البريق المنبعث منهن، كلما اقتربن أكثر نحو نموذجنا الغربي للموضة؛ وهو على العموم بريق يليق بالـ «شقار» الذي تلوّن به الشعر، والبياض الذي أحرزته مراكز «تبييض الوجوه» المنتشرة في عدد من العواصم العربية.

أما المراكز، أو بالأحرى العيادات الطبية الأخرى المهتمة بجمال نساء الشرق، فهي تلك المتخصصة بعمليات جراحة الأنوف: والنساء اللواتي يدخلن هذه العيادات، في بالهن أنوف باريسية، مجوّفة في وسطها ومرتفعة في طرفها، أي أنها retroussé. لا أملك إحصاءات حول نسبة النساء المرتادات لهذه الأصناف من العيادات؛ لكن مشاهداتي اليومية تدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه النسبة غير قليلة. وأشدّ ما يلفتني في هذه الأنوف الباريسية، إعتقاد صاحباتها بأنهن دخلن جنة الجمال الأمثل؛ في حين أن أنوفهن تعاني من عدم تآلف مع بقية ملامح الوجه، الشرقية أساساً؛ وهي فوق ذلك تفقد جزءاً من الوجه، الواقع تحت الأنف مباشرة، قدراً يسيراً من التعبير... وقد ينمّ ذلك عن قلة إدراك من أن الجمال، بشق لا يستهان به، مصدره الحياة المنبعثة من دواخل صاحبته، والتي لا بد أن تعطي للوجه وملامحه تعبيراته الحسية الملموسة.

أما الإضافات التي أُدخلت على الموضة والمستوحاة من نساء العالم الثالث، كالشعر المجعّد أو اللون البرونزي أو العيون السوداء، فقد أحببناه كما أحببنا ابن خلدون: أي بعدما أحبه الغرب. ثم إنها لا تخرج عن النطاق الفلكلوري، فهي لا تؤثر على الهيكل الجمالي المعتمد. وآخر مثال على سطحية هذه الإضافات هو العارضة السوداء نعوم كامبل: رواجها اللافت جعل البعض يعتقد بأن الذوق الأفريقي الأسود، بعد عصور من القهر، قد ساد. لكن الجواب على هذا الاعتقاد أتى من دولة جنوب أفريقيا نفسها: فعارضات الأزياء السود فيها، خضن معركة ضد كامبل، بصفتها لا تمثل الجمال الأفريقي الأسود: فلا هي سوداء بما فيه الكفاية ولا تقاطيع وجهها الدقيقة، الشبيهة بتقاطيع الوجوه الغربية، هي أفريقية: واللواتي خضن هذه المعركة من العارضات الجنوب أفريقيات، حلقن شعرهن حتى آخره، ونادين بجمال أنوفهن الفطساء وشفاههن الغليظة وأوساطهن المتكورة، الممتلئة...

وعارضات الأزياء أصبحن بطلات الصورة المعاصرة بلا منازع؛ يُستقبلن كالشخصيات الرسمية الكبرى وتوضع على صدورهن الأوسمة، وتتهافت عليهن كافة

الأوساط المخملية والعامة. وما أدخلته عارضات الأزياء جديداً على التمثل الغربي، هو طريقة المشي والجلوس وعبارات في الوجه لم تكن حاضرة في المثالات السابقة: فالـ «غندرة» استبدلت بتقويس للجسم، توضع بموجبه الأجزاء السفلى من هذا الجسم إلى الأمام، ويتراجع بذلك الجزء الأعلى إلى الوراء، فتصير الأرجل بذلك وكأنها شبه منفصلة عن كل ما تبقى... هذا ما تراه في عروض الأزياء وفي بعض شوارع بيروت ومقاهيها وحتى شاشاتها الصغيرة. أما تعابير الوجه، فتعطي الانطباع وكأن المُراد منها هو البقاء في حالة متواصلة من تقديمه. فالملامح هي للعرض، والعرض المغري، وليس للتعبير عن الداخل والمكنونات... لذا يطغى عليها شيء من البله وثقل الدم... وإذا أضفت إلى ذلك طريقة وضع المساحيق الجمالية وتقليم الأظافر ووضع أحمر الشفاء، تنظر إلى هذه الوجوه والأجساد، وتسأل نفسك «من هي، من؟» كيف أميّز هذه عن تلك؟».

وبعد ذلك يأتيك التيار الإسلامي السياسي داعياً إلى حلول جذرية أكثر نجاعة للتجاذبات التي تحدثها موضة الغرب؛ ومفاد دعوته السكن في زمن خاص، عصره الذهبي... حيث يرى أن العلاقة بين الدال والمدلول قد استوت. فهو لا يشك لحظة بأن رؤيته قد يعتريها اللبس: إذ يكفي، وحسب المعتدلين من أبنائه أن تستر المرأة كل العورات، ما عدا الوجه والكفين... ويكون جمهور المسلمات بذلك قد سلم من «جشع» وكفر بيوت الأزياء الغربية، المتحالفة مع أعتى أعداء الإسلام، أي الماسونية أو الشيوعية (وهذه الأخيرة خفّت الحدّة إزاءها بعد الذي حصل في كتلة أوروبا الشرقية)؛ وهكذا نكون قد انتهينا من الحيرة التي ابتليت بها نساء الشرق بسبب موضة الغرب. إلاّ أن نظرة سريعة جداً على جمهور لابسات الحجاب المتكاثر تستعيد بعض الملاحظات:

أولها تخص الملتزمات بالحجاب الإسلامي المسمّى «شرعياً»: فما لا ينتبه إليه جمهور هذه الفئة من النساء، هو أن ارتداءهن لهذا النمط من الحجاب هو، بجانب من جوانبه، رد على المنظومة الجمالية التي فرضها الغرب على الشرق. هو ردّ بالـ«اللحم الحي»، إذا جاز هذا التعبير، أي أن الجسد هنا هو حصنه وأداته في آن: ردّ لا يكتفي بإصابة الهوية السياسية لأهل الشرق، بل يتوغل في صميم التصوّر الذي تحمله نساء الشرق عن أنفسهن، عن صورتهن لهذه النفس، وانعكاسها على مظهرهن الخارجي؛ هذا على افتراض أن كل هذا الجمهور من النساء لبسن الحجاب الشرعي طواعية... مما يستدعي سؤالاً افتراضياً قوامه: ماذا لو لم يكن هناك هيمنة غربية على الشرق

منذ مئتي سنة، هل سيكون هناك تيار يدعو إلى هذه الدرجة من التشدّد بالحجاب الإسلامي يعطي لنبرته لهجة جديدة، بل ينقلب على الحجاب «التقليدي»، ويجدد صفة «الشرعية» لحجاب معاصر؟ أي بمعنى آخر: هل ستكون الهيئة الخارجية لجزء كبير من نساء الشرق كما هي عليه الآن؟ يقدّم نفسه باللباس «الشرعي» الإسلامي؟

ثانية هذه الملاحظات هي حول علامات الموضة الغربية المعتمدة لدى المحجّبات غير الملتزمات بأحزاب إسلامية، وهن يشكّلن الغالبية العظمى من نساء الشرق: فمن منا لم يلتق بمحجبة ترتدي بنطلوناً أو أقصر منه، أي برمودا (bermuda) أو تنورة ضيقة لا هي طويلة ولا هي قصيرة؟ ومن منا لم يلاحظ أثر التبرّج الغربي على وجوه هؤلاء المحجّبات، من أحمر الشفاء وظلال العيون والماسكارا.. إلخ؟ أو لم يتنشق عطور باريس القوية خلف كل هذا التستر؟

أما الملاحظة الأخيرة، فتدور حول وحدة الأزمان والمناطق الجغرافية الإسلامية. فبالإضافة إلى تنوّع الحجاب مع تنوّع البلاد المعنية، وربما المناطق في البلد الواحد، هناك موض عديدة للحجاب لم تنفلت من روحية الموضة ولا من وظائفها.

وبانتظار دراسات أكثر منهجية، سأحاول حصر بعض الموض الخاصة بالحجاب الإسلامي، والتي لم تخرج من زمانها الواقعي إلا لتدخل في سُبات الأزمان الغربية البعيدة:

- هناك حجاب أسميته «الهندي الأميركي»، يشدّ كل الوجه إلى الخلف بقماشة ذات لون واحد إجمالاً، وتضع صاحبته على رأسها رقيقة معدنية مزينة بأشكال مختلفة تلف الرأس مروراً بالجبين أو فوقه بقليل؛ هذا الحجاب المستوحى من هنود الأباش الأميركيين يعطي للعيون سحراً خاصاً، ويمنح للوجه جلالاً لا يضاهيه سوى هالة الوقار المنبعثة من صاحبته.
- هناك حجاب يمكن أيضاً، يا للصدفة، تسميته بالـ «أميركي»، ولكنه أميركي معاصر هذه المرة: يشبه القلنسوة التي كانت الأميركيات، خاصة ممثلات السينما، يلبسنه قبل الحمام أو بعده أو أثناء الغطس في البحر، وذلك حفاظاً على شعرهن. إنها طاقية تتجمع وسط الرأس الأمامي وتعطي لصاحبته شيئاً من «اللوك» (look) الحديث... بل تعطي أحياناً انطباعاً بأن ما تلبسه ليس بالحجاب.

- هناك الوشاح الكبير الذي يلف حدود الوجه لينتهي بربطة على هذا الجانب أو ذاك من الرأس؛ وإذا كانت لابسته صاحبة دلال، فهي تضع أحياناً على الربطة وردة صغير توحي، أيضاً، بشيء من اللوك... العائد، هذه المرة، إلى الخمسينات؛ لذلك أسميته «الحجاب الغجري».
- أغرب ما صادفته من حجاب هو قلنسوة أيضاً، لكنها مصممة بشيء من الاسترخاء وبقماش أعتقده حريرياً، ينتهي فوق مؤخرة الرأس بشكل كروي صغير. وأشهر من ارتدى تلك القلنسوة تاريخياً هي الملكة الفرنسية ماري - أنطوانيت زوجة الملك الفرنسي لويس السادس عشر.

أما الجديد في عالم الحجاب الإلزامي، أي في البلاد التي ترغم نساءها على ارتدائه، فهو دخول بيوت الأزيار الغربية في صناعة وتصميم «الموضة بالحجاب»؛ كتلك المصممة الإيطالية التي حضرت خصيصاً إلى العربية السعودية لدراسة بيئتها «الاجتماعية والثقافية» بهدف تصميم ملابس مناسبة لهذه «البيئة». فكانت النتيجة، أن الملابس المصمّمة لهذا الغرض هي مزيج مضحك من إرادة التحجّب والتستّر غير مقتنعة بنفسها، ورغبة جامحة، ولكن مضبوطة، بالكشف والإغراء. فالواضح أن المصمّمة الإيطالية لم تلبس حجاباً في حياتها، ولا اختنقت بقيظ الصحراء الخانق... كل ما فعلته أنها باعت، بثمن مرتفع على الأرجح، أفكاراً جاهزة حول الملابس، مثلها مثل «الخبير» الأجنبي الذي يأتي إلينا ليصمّم جسوراً وأبنية ومصانع، تنبىء، منذ مدماكها الأول، عن جهوزية تغريبية.

أشعر ببعض الحرج والتسرّع في محاولتي الخروج بنتيجة حول موضوع استبطان نساء الشرق لقيم الغرب الجمالية؛ ربما بسبب غياب الضابط الجمالي عندي أو الاستدلال المنهجي أو حتى الأيديولوجي. أطلقت العنان لبعض الصور المختزنة في مخيلتي وذاكرتي، وكتبت ما زعمت أنني شئت كتابته... أقول هذا لأنني أعلم وطأة الرقابة الذاتية على نفوسنا، وهي أشد إيغالاً مما نحاول اعتقاده أحياناً. إلاّأن الثابتة التي حكمت تفكيري في الموضوع هي أننا نحن نساء الشرق نطل على الدنيا بداية وكلنا فرح واهم بحرية أجسادنا...

ثم تأتي التفاصيل الصغيرة غير المُباح بها، بل التافهة أحياناً لتتراكم في أذهاننا وتوصلنا ونحن في أعمار حرية مفترضة إلى اكتشاف مدهش: فالموضة الغربية بشتى تعبيراتها صادرت أجسادنا ومخيلتنا وأخضعتها للعبة سرية نعرف العنوان الكبير

لأصحابها، ونجهل كل ما تبقى: آلية اللعبة، واللغة التي نستدلّ بها لوصف هذه الآلية...

وقد يكون مفيداً الخروج من هذه المقالة عند هذه النقطة من الوعي؛ فهي تدعونا إلى الاستغراق في أنفسنا، دون النرجسية المتداولة، المغرقة بسطحيتها، والمتشبّثة بصورة استقرت عليها، ولن تراجعها... استغراق متسلّح بما هو متوفّر من مقوّمات التثاقف: وأعني بالتثاقف هنا استنباط ما تحمله ثقافة الغرب من أدوات مفهومية ولغوية بغية استكشاف رغباتنا الجمالية. وهذه الأخيرة لن تكون عموماً سوى مزيج من ذواتنا العميقة وأشكال جمالية غربية، بعضها يلائم ملامح وجوهنا وتركيبة أجسادنا وبعضها الآخر لا يليق بهذه الوجوه والأجساد... ثم استعادة بعض الأذواق الجمالية الشرقية أثناء ذلك... وهو طبعاً مزيج يحسب لما بقي حيّاً من ثقافتنا، لطرق حياتنا وأنماط أنشطتنا بل ربما المناخ الذي يظلّل أيامنا، وكلها معطيات، لو جُمعت، لبان لنا كم نحن نحتاج إلى نزع الغربة عن مخيلتنا... بل كم نحن نستطيع ذلك... لو توقفنا برهة وتأملنا بمرايا ذواتنا البعيدة.